المنظور السوسيولوجي للرواية العربية

أ. سعــود فطيمة
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة الجلفة

المقدمة:

سوسيولوجية الرواية من القضايا الهامة التي تطرح على بساط البحث اليوم فهــل ثمــة ضرورة حقيقية لربط الأدب عموما وهو إبداع في الأصل بقضايا المجتمع؟

وما هو دور الفن الروائي العربي تحديدا في المجتمع اليوم؟

1- **مفهوم الأدب ووظائفه:**

للأدب تعاريف كثيرة ومتنوعة من بينها أنه "فن القول ، وأنه الإبداع، وأنــه "اكتــشاف وارتياد لحقائق الحياة". وقد استخدم "مصطلح الأدب Littérature عند الغربيين للإشــارة إلى الآداب الجميلة، أو الآداب المكتوبة أو المنطوقة، وشمل القصيدة والأسطورة وروايــة أحداث التاريخ، ث شملت بعد ذلك أنواعا أخرى مثل القصة والرواية والمسرحية والمقال والنقد وغيرها". وظهرت في إطار الأدب مذاهب أدبية منوعة كالرومانــسية والواقعيــة والكلاسيكية وغيرها.

2- **علاقة الأدب بالفكر الإيديولوجي:**

في ظل "ما طرحته العقلية الغربية من فلسفات وإيديولوجيات، كان لها تأثير فــي أدبنــا العربي، وبنوع خاص في شعرائنا وكتابنا، وكذلك في فنون الأدب الحديثــة مــن قــصة قصيرة ومروية ومن مسرحية ومقال أدبي، وأصبت لهذه الفنون قدم راسخة فــي عالمنــا العربي وصار لها كتاب تركوا آثارا جديرة بالدراسة والاهتمام. كمــا أصــبح للمــدارس الأدبية والمذاهب النقدية الحديثة دورها الهام في تتبع الحركة الأدبية المعاصرة في عالمنا

Mokarabat

العربي وتحديد ملامحها واتجاهاتها الفنية". ولقد سعى البحث السوسيولوجي والسيكولوجي إلى صبغ الأدب بصيغتها.

أما فيما يتصل بوظيفة الأدب فثمة خلاف واضح بسبب الأجناس الأدبيـــة "كالـــشعر أو القصة أو الرواية أو المسرحية .. فالخلاف أيضا جول وظيفـــة الأدب العظـــيم Great، والأدب الجيد Good، والأدب السوقي Sub-Literary، هذا الأخير يجد من يثني عليـــه باعتباره نوع من التسلية أو الهروب من أعباء الخياة اليومية في نفس الوقت الذي ينتقـــده "كنيث بورك"، فعملية الهروب التي قد يحققها الأدب السوقي يمكن أن تساعد القارئ على زيادة سخطه على الواقع الاجتماعي الذي يعيشه..".

ويمتد الخلاف أيضا إذا نظرنا إلى وظيفة الأدب مـــن وجهـــة النظـــر الإيديولوجيـــة "فالرأسمالية تنظر إلى الأدب باعتباره ظاهرة اجتماعية ينمو ويتطور بنمو وتطور وتغير المجتمعات، وهو وسيلة أساسية من وسائل الاتصال الاجتماعي. والأدب جزء من البنـــاء الاجتماعي للثقافة في المجتمعات الرأسمالية. وله وظيفة هامة في الحفاظ علـــى تـــوازن البناء الثقافي للمجتمع هذا فضلا عن وظيفته الأساسية في الترفيه والتسلية ... بينما تنظر الماركسية إلى الأدب باعتباره أداة أساسية من أدوات الضبط الاجتماعي وهو أحد أسلحة الطبقة.

ومن خلاله تتواجه الإيديولوجيات المتعارضة، وتقع الصراعات بين القـــديم والجديـــد. وترى الماركسية ضرورة تصوير الأدب للمجتمع القائم على الاستغلال والظلم والكـــذب تصويرا دقيقا بهدف القضاء عليه، والماركسية كأيديولوجية، تسعى إلى زيادة وعي أفراد المجتمع بما فيهم الأدباء وتدفعهم للالتصاق بالواقع الذي يستقون منه أعمالهم".

ولا يمكن إنكار الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية الفاعلة في الكاتب بوصفه فردا في بيئته ومجتمعه "فالأدب نتاج لواقع معين، وانعكاس صادق لقضايا مجتمع محدد يتفاعل بعمق مع هموم وطموحات الجماهير، فيتأثر ويساهم في التأثير فالأديب وهو ابن بيئته أقدر الناس على احتضان الواقع بأفراحه وأتراحـــه/ وعلـــى الالتحـــاق الـــدائم بالجماهير وهي تكدح وتكد في سعيها الدؤوب لبناء الغد المشرق". رغم أن بعض الأدباء يحيدون عن حياتنا في أدبهم مولعين بتقليد الغرب في كل الأمور وهو رأي عبـــد المـــنعم

Mokarabat

خفاجي يقول: "أدبنا اليوم لا يمثل حياتنا، ولا هو يمثل ثقافة أو حضارة خاصة بنـــا، ولا يمثل في قليل ولا في كثير شيئا من خصائصنا الأصيلة، إلا في القليل الأقل منه ... هـــذا القليل الذي ينصرف شبابنا والمتأدبون منا عن القراءة له بدعوى أنه أدب قديم رجعـــي لا أدب حديث متجدد"

3- **<u>النص الروائي</u>:**

الرواية هذا الجنس الأدبي الحديث، يشاع عنه أنه وسيلة للترقية فحسب، غير أنه أبعد مغزى من هذه السطحية، فالرواية ليست تركيبة فنية مردة أو ترفا ذهنيـــا، بـــل تغييـــر اجتماعي وانفجار معرفي حقيقي ولقد أصبح فن الرواية وانتشاره مـــن أبـــرز الظـــواهر الأدبية التي بدت واضحة أخيرا، حيث تختفي بهذا الفن جوائز عالمية مما غدى ظاهرة لها دلالتها ليس في الأدب العربي فحسب بل في الأدب العالمي فالرواية لا تسود كجليس أدبي للمبدعين فحسب، بل أصبحت نادي يجتذب أصحاب الفكر والسياسية، لتتحول إلـــى وعـــاء أدبي جذاب ومراوغ يقول من خلاله المثقف ما يريد أن يصل إليه دونما اصطدام.

لقد أصبحت الرواية أقدر أشكال الكتابة على التعبير عن تناقضات حياتنا المعاصـــرة وهي تعتمد على ذلك الجدل القائم بين شخصياتها من خلال الحوار والوصـــف والـــسرد، وتبرز من خلال ذلك قدرتها على تكوين شبكة متداخلة الخطوط مليئة بالدلالات والمعاني والقيم وهذا ما أكده، محمد مندوز حين أشار إلى أهمية الأدب عموما من حيث هو وظيفة اجتماعية، فالعلاقة قائمة بين الفن والحياة فالرواي "يحيل على الأعلام والوقائع الكبرى في العصور الذهبية ويتجه إلى النقد والإصلاح الاجتماعي"

إن النص الروائي اليوم مهموم بأدواء العصر، متدافع إلى النقد الاجتماعي فـــضلا عن جماليته الفنية "بل إن انفتاح النص الروائي المدهش على الأجناس الأدبيـــة والفنـــون الأخرى ليس إلا توسيعا مقصودا لتناص البنية الروائية العربية عند الاســـتجابة لـــضائقة أدبية حادثة هي وليدة العصر الذي تنتمي إليه الذات الكاتبة والهموم التي تسكنها".

Mokarabat

4- **الروائية الاجتماعية:**

تختلف أنواع الروايات فمنها الرواية التحليلية التي تعنى بالتحليل النفسي لبطل من خلال بيئته، مثل رواية "الأطلال" لمحمود تيمور، وثمة الرواية الشخصية والتي ترتكز على تجربة عاناها المؤلف، ليغدو هو بطل الرواية يمتزج فيها الواقع بشيء من الخيال حول جزء من حياة الراوي مع شيء من التغيير مثل "الأيام" لطه حسين، والرواية التاريخية تستمد مادتها من التاريخ بهدف معرفة وإحياء التاريخ في قالب مثل رواية "كفاح طيبة" لنجيب محفوظ، بينما الرواية الذهنية تنطلق من إيديولوجية معينة يتبناها الكاتب ويسعى إلى أقناع الآخرين بها، من خلال تصريف الأحداث وإنطاق الشخصيات في الرواية وفق مبادئ وشعارات خاصة بالكاتب الروائي وفق تصوره وبأساليبه الخاصة.

أما الرواية الاجتماعية فهي الرواية التي تعنى "بتحليل قضايا اجتماعية واقعية كقضية الصراع الطبقي، أو الثأر، أو الجريمة، وارتباط هذه القضايا بقيم وعادات وتقاليد المجتمع، ومن الأمثلة على هذا النوع من الأعمال الروائية، رواية "دعاء الكروان" لطه حسين، و"الثلاثية" لنجيب محفوظ، و"قنديل أم هاشم" ليحي حقي وغيرها".

وهكذا يتبين أن الرواية أكثر من وجه، وبهذا الصدد يرى "هنري جيمس" أن الرواية صورة حية للحياة، وأن الحياة لا يمكن أن تظهر على أحسن وجوهها في العمل الفني، إن لم يتوفر لها الشكل الفني المتكامل، وأن مهمة الفن هي إبراز الحياة في الصورة الفنية في أتم وأجمل صورها"

وفق السوسيولوجية فإن الرواية وقائع وسير، تتضمن تصويرا واقعيا للمجتمع وهذا وفق "مفهوم الماركسي لنظرية الانعكاس. ويعتبر "لوسيان جولدمان L. Goldman أول من قدم فرضيات ذات طابع سوسيولوجي صريح حول الرواية وذلك انطلاقا من آراء "جورج لوكاش G. Luckacs"، و"رينيه جيرار R. Girard"، ومن ثمة فقد عرف الرواية بأنها "قصة بحث عن قيم أصلية بصيغة متدهورة، وفي مجتمع متدهور" وفي الحقيقة أن هذا التعريف قد قصد به "جولدمان" المجتمع الرأسمالي... وذلك على اعتبار أن المجتمع البرجوازي لا تظهر فيه العلاقة المباشرة بين الأفراد والأشياء بمظهرها الخالص، وهذا ما يميز القيم الأصيلة في الرواية.

Mokarabat

وجدير بالذكر أن تعريف "جولدمان" للرواية من المنظور السوسيولوجي وتحديده لوظائفها لا يخلو من تميز إيديولوجي واضح فسخطه على المجتمع الرأسمالي امتد إلى سخطه على الرواية التي تعكس أو تنقل ما في الحياة اليومية من ظواهر اجتماعية اقتصادية نقلا مباشرا، ومن قم فقد وصف العمل الروائي بأنه عمل متدهور من حيث الصياغة، ووصف المجتمع البرجوازي بالمجتمع المتدهور".

5- **تطور الفكر الاجتماعي في الرواية العربية:**

اليوم تجاوزت الرواية مونها مجرد أداة تسلية إلى أداة تصور أبعاد الحياة الاجتماعية، وتعبر عن ضمير الإنسان وقيمه وآرائه واتجاهاته، مستوعبة أيضا لتاريخ. متنبأة بالمستقبل "فالحافز على تحليل النصوص الصغرى هو البحث في استعارة التاريخ ودلالات الغياب في الرواية العربية، يليه استقراء المكانية الروائية لمقاربة الرؤى السردية الكبرى في تمثيل الوعي الروائي العربي. أما الحافز على تحليل النصوص الكبرى، فهو اتخاذ عينات دالة على اتفاق كل منها والنصوص الصغرى في أداء وعي إشكالي كالحاضر المتعاظم حينا، وكالماضي المستبد بسرد الرؤى حينا. وبالاسترجاع والحنين إلى ما كان، والفرار من جحيم اللحظة الآن، وتنشيط حالات التطلع إلى مستقبلي ما مختلف حينا آخر"

وجدير بالذكر أن الرواية اليوم هي بمثابة "أداة سياسية واجتماعية هامة تعبر عن روح المجتمع ومشكلاته وقضاياه الأساسية .. ولها أدوار عديدة في المجتمع الحديث كدور الكاهن، ودور المشرف السياسي، ودور المعلم، ودور الصحفي .. وفي القرن العشرين شهدت الرواية أوج ازدهارها، وزاد تعمقها في الضمير الإنساني، وارتباطها الشديد بالمجتمع، فالأديب الروائي أصبح اليوم لا يقل أهمية عن عالم الاجتماع في تصوير الواقع الاجتماعي والتنبؤ بالمستقبل".

والرواية العربية الحديثة تطورت على أيدي الأجيال التالية من الروائيين العرب، متخلصة من المضامين الغربية ولمعت أسماء روائيين خلال الثلث الأول من القرن العشرين أمثال محمد حسين هيكل، وتوفيق الحكيم في مصر، وإلياس أو شبكة، وكرم ملحم في لبنان، ومحمود السيد في العراق. ليأتي العصر الذهبي للرواية العربية في العقد

Mokarabat

الرابع من القرن العشرين على أيدي أبناء الجيل الثاني ومن أبرز هؤلاء الروائيين: نجيب محفوظ، وإحسان عبد القدوس، ثم تقدمت الرواية على أيدي الجيل الثالث أمثال يوسف إدريس. وكانت هذه رواياتهم خاصة رواية نجيب محفوظ شاهدا على تطور المجتمع العربي واشتراق مستقبل أفضل.

الخاتمة:

وهكذا أصبح للرواية العربية هذا الدور الكبير في رصد وضع المجتمع وتجسيد أزماته وتحليل قضاياه الأساسية من خلال شخصياتها الروائية. فالرواية هي أكثر فنون الأدب قدرة على تصوير حركة الإنسان في علاقته بمجتمعه سواء كان هذا التصوير واقعيا مباشرا، أو رمزيا مستترا. إنها أكثر أشكال الأدب تأثيرا وانتشارا في المجتمع.

Mokarabat

الهوامش:

1) محمد زكي العشماوي: الرؤية المعاصرة في الأدب والنقد. دار النهضة العربية. ص 107.
2) محمد كمال غالب: الأدب والمجتمع. دار الوفاء للنشر. سنة 1980 م. ص 13.
3) المرجع السابق. ص 141.
4) محمد علي بدوي: علم اجتماع الدب النظرية والمنهج والموضوع. دار المعرفة. الإسكندرية. سنة 2005 م. ص 21.
5) المرجع نفسه. ص 22.
6) حلمي مرزوق: تطور النقد والتفكير الأدبي الحديث في الربيع الأول من القرن العشرين. دار النهضة العربية بيروت. سنة 1983 م. ص 10.
7) بلقاسم بن عبد الله: دراسات في الأدب والثورة. منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين. دار هومة. سنة 2002 م. ص 162.
8) محمد عبد لمنع خفاجي: دراسات في الأدب العربي الحديث. دار الجيل.بيروت. سنة 1992 م. ص 11.
9) عبد القادر ليفا: مقال الرواية ومجتمع المعرفة. جريدة النهار.
10) إبراهيم عباس: الرواية المغاربية الجدلية التاريخية والواقع. منشورات المؤسسة الوطنية. سنة 2002 م. ص 6.
11) مصطفى الكيلاني: الرواية والتأويل سردية المعنى في الرواية العربية. دار السفير. عمان. ط1. سنة 2009 م. ص 22.
12) أنظر. محمد علي البدوي: علم اجتماع الأدب. ص 22.
13) أنظر. بلقاسم بن عبد الله: دراسات في الأدب والثورة. ص 8. وياسين الأيوبي: في محراب الكلمة. المكتبة العصرية. ص 233.
14) محمد علي البدوي: علم اجتماع الأدب. ص 23.

Mokarabat

15)المرجع نفسه. ص 24.

16)المرجع نفسه. ص 25.

17)مصطفى الكيلاني: الرواية والتأويل. ص 8.

18)محمد علي البدوي: علم اجتماع الأدب. ص 272.

19)أنظر. المرجع نفسه. ص 274.

Mokarabat